

مظاهر الاغتراب في الأدب العربي

Manifestations of alienation in Arabic literature

إعداد الباحثة/فايزة بنت أحمد بن محمد الحارثي

ماجستير أدب ونقد حديث، جامعة الطائف، مدربة في إدارة التدريب والابتعاث تعليم الطائف، المملكة العربية السعودية

المستخلص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين؛ وبعد:

فموضوع هذا البحث (مظاهر الاغتراب في الأدب العربي)؛ هدفت فيه إلى: 1-التعريف بشعر الاغتراب وأنواعه من خلال التطبيق على نماذج شعرية متنوعة.

وقد انتهجت في هذا البحث المنهج التكاملي (المتكامل) الذي يحاول الإفادة من المناهج الأخرى قدر الإمكان فيجمع بين التاريخ والاستقراء والتتبع والنقد والتحليل.

وقد قسمت الدراسة إلى فصلين ففي الفصل الأول تناولت التعريف بالاغتراب، ومفهومه اللغوي في اللغة العربية، ثم مفهومه الاصطلاحي، والمراد به في الدراسات النفسية والاجتماعية، ثم تتبعت في الفصل الثاني ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي على مر العصور.

وفي الخاتمة: لخصت فيها نتائج البحث، وأهم توصياته. والله الموفق

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، مظاهر، الأدب العربي

Manifestations of alienation in Arabic literature

By/ Fayza bint Ahmed bin Muhammad Al-Harthy

Abstract

Praise be to God, Lord of the Worlds, and blessings and peace be upon the most honorable prophets and messengers, our master and our Prophet Muhammad. May God's prayers and peace be upon him all. And after:

This research (manifestations of alienation in Arabic literature); aimed to 1- Introduce the poetry of alienation and its types through application to various poetic models.

In this research, I have adopted an integrative approach that tries to benefit from other approaches as much as possible, combining history, extrapolation, traceability, criticism, and analysis.

The study was divided into two chapters. The first chapter dealt with the definition of alienation and its linguistic concept in the Arabic language. Its idiomatic concept, which is intended in psychological and social studies, then in the second chapter, the phenomenon of alienation in Arabic literature throughout the ages was traced.

In conclusion: I summarized the results of the research and its most important recommendations. God bless

Keywords: Alienation, Manifestation, Arabic literature

الإهداء

إلى من نهلت من نبعها الحنان والصفاء ... أمي
إلى ذلك العظيم الذي علمني الاجتهاد والعزيمة ... أبي
إلى إخوة الصفاء والنقاء ... إخواني وأخواتي
إلى زوجي ...
من وقف بجانبني وكان له الفضل بعد الله في إنجاز هذا العمل
بدعمه ورعايته
إلى شموعي الثلاثة أبنائي

شكر وتقدير

قال تعالى: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) سورة إبراهيم "7"
فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الذي بُعث ليخرج الناس من الظلمات
إلى النور، وعلى آله وصحبه شمس الضحى، وقناديل الدجى، وبعد:
فإنّ القلم ليعجز أن يسطر كلمات الشكر والتقدير لكل من كان له فضل ومدد العون في سبيل إخراج
البحث على هذا النحو.
فأبدأ شكري وحمدي لله عز وجل خالق الكون، مالك السماوات والأرض، مدبر خلقه، ثم أتوجه
بوافر الشكر والتقدير إلى الذين قدموا لي يد العون في تهيئة هذا الموضوع، سواء بما يمتلكون من مصادر أم
بما يحسنون من توجيه كان له الأثر الواضح في هذا الإنجاز.

قائمة المحتويات

620.....	المستخلص باللغة العربية
ب.....	المستخلص باللغة الإنجليزية
622.....	الإهداء
622.....	شكر و تقدير
623.....	قائمة المحتويات
1.....	المقدمة
8.....	التمهيد
Error! Bookmark not defined.	الفصل الأول
16-10	تعريف الاغتراب
39-24	الفصل الثاني: ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي
40.....	الخاتمة
49.....	النتائج والتوصيات
52-51	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين؛ وبعد:

فيعد الاغتراب (Alienation) ظاهرة من الظواهر المهمة في الأدب التي تحتوي على البعد والشعور بالوحدة في الحياة، ومن ثم ليس ظاهرة جديدة ظهرت إثر التحولات الأدبية و السياسية في الآثار الأدبية، بل ظاهرة قديمة قدم الإنسان علي الكرة الأرضية؛ فمنذ إخراج آدم عليه السلام من الجنة أخذت ملامح الاغتراب تلمع في صفحات الحياة الانسانية، و إذا حاولنا الكشف عن جذور الاغتراب في الأدب العربي نري أنها كمنّت في مطالع القصائد الجاهلية عند حديثهم عن الأوطان، و وصف الأطلال، و الدّمن و الوقوف عليها، والبكاء علي رسومها المندرسة.

إنّ الاغتراب يشير في طياته إلى الانعزال والانفصال عن أُمثَل السائدة، وأعراف المجتمع الإنساني بناءً عليه، يشعر المغترب بالانطواء على النفس. يعبر هذا الشعور عن هروب الانسان من الواقع واللّجوء إلى عالم خيالي للعثور على فقدان ما في الحياة من الآمال والطموحات، وظهر هذا الموضوع في الأدب العربي الحديث؛ نتيجة التطورات الفكرية، والسياسية واعتناق المذاهب الفلسفية المختلفة، وورودها في مجال الأدب، وتعرّف الشعراء على منتجات الحياة الغربية خاصة في مجال الفلسفة. وقد تأثر الشعراء المعاصرون بالفكر الغربي عامة و نفذت آراءه إلى الشرق العربي في القرنين التاسع عشر، والعشرين والحادي والعشرين.

أهداف البحث:

تركز هذا البحث على مظاهر الاغتراب في الأدب العربي وتشمل الأهداف التالية:

- التعريف بشعر الاغتراب وأنواعه من خلال التطبيق على نماذج شعرية متنوعة
- تعريف الاغتراب في الدراسات النفسية والاجتماعية
- ذكر بعض مظاهر الغربة والاعتراب عبر العصور الأدبية لدى شعراء العربية

منهج البحث

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التكاملي، وهو المنهج الذي يجمع بين التاريخ والوصف، والتحليل، ولما كان الموضوع أكثر ارتباطاً بالجانب الذاتي، استخدمنا التحليل النفسي بالقدر الذي يتحمّله النص حتى لا تخرج الدراسة عن إطارها الأدبي.

أسأل الله _ سبحانه وتعالى _ أن ينفع بهذه الدراسة وأن أُلَمَس إثمها للمكتبة العربية عامة والسعودية بخاصة.

خطة البحث

قسمت البحث إلى: تمهيد، وفصلين، وخاتمة.

الفصل الأول: -

التعريف بماهية الاغتراب ومفهومه الاصطلاحي، كما تتبع هذا المصطلح في اللغات الأجنبية، ثم تحدثت عن ورود هذا المصطلح في الدراسات النفسية والاجتماعية.
الفصل الثاني: مظاهر الاغتراب في الأدب العربي.

الفصل الأول: التعريف بماهية الاغتراب ومفهومه الاصطلاحي والنفسي والاجتماعي.

إنّ الاغتراب عاطفة تستولي على المرء، وبخاصة الفنانين، فيعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهون، أو يرغبون فيه فالفنان يشعر بأن العالم كله سجين أقحم فيه مرغماً فكله بقيود وأشعره بأنه غريب بين أهله وناسه.¹

تعريف الاغتراب لغة واصطلاحاً

الاغتراب في اللغة

معجم "كتاب العين" الذي يذكر مفردة غربة ويفصل في مادة غرب من الفعل "غرب" مساوية للاغتراب من الفعل الماضي المزيد "اغترب" وما هذه الأخيرة إلا افتعال من الغربة، واشتقاق منها.²
ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة غَرَبَ: الغُربة: النوى والبعد، والتَّغريب: النَّفْي عن البلد، والغربة والغروب بمعنى النزوح عن الوطن، ومنه الفعل اغترب، يغترب أي نزح عن الوطن ونأى عنه، قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسِبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَا يُكْرَمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ⁴

واغترب الرجل: نكح في الغرائب، وتزوج إلى غير أقاربه، والاعتراب: افتعال من الغربة.

وَأَغْتَرَبَ الرَّجُلُ: صَارَ غَرِيبًا. وَرَجُلٌ غَرِيبٌ: لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ. وَتَثْنِيَتُهُ غَرُبَانٌ.

قال طهمان بن عمرو الكلابي:

"وَإِنِّي وَالْعَبْسِيُّ فِي أَرْضٍ مَذْحَجٍ⁵ غَرِيبَانِ شَتَى الدَّارِ مُخْتَلِفَانِ

1 ينظر: المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ص: 186

2 الكتاب العين، الفراهيدي، تحقيق مهدي، 42/4

3 لسان العرب، المجلد الأول، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص 638.

4 ديوان زهير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، 2005، ص: 70

5 مذحج: لقب قبيلة عظيمة من كهلان من القحطانية

وما كان غض الطرف منّا سجية ولكننا في منجح غربان⁶

وفي الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الغرباء، فقال: ((الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي))⁷، وفي حديث آخر: ((أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء))⁸

أي أنه كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل عنده، لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريباً كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء، فطوبى للغرباء، أي الجنة لأولئك المسلمين الذين كانوا في أول الإسلام ويكونون في آخره، وإنما خصهم لصبرهم على أذى الكفار أولاً وأخراً، ولزومهم دين الإسلام.

وورد في المعجم المحيط⁹: الغربة بالضم: النزوح عن الوطن، وأيضاً الاغتراب، والتغرب، ونجد أيضاً غرب: غاب كغرب وبعد واغترب، تزوج في غير الأقارب في الأثر: "اغتربوا لاتضؤوا"¹⁰

وفي المعجم الوسيط¹¹: غرب في الأرض أمعن فيها فساfer سفرًا بعيدًا، واغترب فلان نزح عن الوطن، وفلان تزوج في غير الأقارب، والغريب الرجل ليس من القوم ولا من البلد، والغربة: النوى والبعد. معجم مقاييس اللغة لابن فارس¹²، الغربة: البعد عن الوطن، ويقال غربت الدار ومن هذا الباب غروب الشمس، كأنه بُعدها عن وجه الأرض، وشأؤ مغرب أي بعيد، ويقولون هل من مغربة خبر يُريدون خبراً أتى من بُعد.

الجوهري في (الصحاح)¹³ يقول التغريب: «النفي عن البلاد، وأيضاً غرب بعد، وأغرب عني أي: تباعد».

الزبيدي في (تاج العروس)¹⁴ «التغرب الذهاب، والغرب: النوى والبعد، وأيضاً الغرب والغربة: النزوح عن البلد».

وهكذا نجد أن الاغتراب والغربة في المعاجم العربية استخدمت بمعنى الغربة المكانية، وهي الابتعاد عن الوطن.

6 لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين، ج5، مادة (غرب).

7 مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، القاهرة، 1292هـ، ط1، ج2، ص122.

8 المصدر نفسه، ص123.

9 المعجم المحيط، الفيروز آبادي، مادة (غرب)، دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول، بيروت، ص206، 207

10 روى إبراهيم الحربي في غريب الحديث أن عمر قال لآل السائب: "اغتربوا لا تضؤوا" أي تزوجوا الغرائب لئلا تجئ أولادكم نحاقاً ضعافاً.

11 المعجم الوسيط، دار العودة، إسطنبول، 1989، ص647، ط1، 1991، ص: 421

12 مقاييس اللغة، المجلد الرابع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص: 421

13 الصحاح، للجوهري، م 1، ص 404

14 تهذيب اللغة، للأزهري، م 7، ص 112

الاغتراب في الاصطلاح

أما الاغتراب اصطلاحاً فقد تطور وتغير مرحلياً عبر العصور، ولاسيما في أوربا فظهر الاغتراب عن الذات، وعن الكون، وعن الثقافة.

والاغتراب مصطلح ثري مثير للجدل لكثرة التعريفات التي وضعت له.

وهو ظاهرة إنسانية ما لبثت تتفاقم ويتعاضم أثرها كلما ازدادت حدة ضغط ما تخلفه الحضارة المادية على النفس البشرية، حتى أصبحت "التجارب والأحوال التي ترتبط، وغالباً ما توصف، بهذا المصطلح إنما هي خصائص مميزة لعصرنا الحديث وللمجتمع الصناعي بوجه عام، والمجتمع الرأسمالي بوجه خاص"¹⁵، على أن هذه الظاهرة ليست جديدة كلية، وإنما هي ظاهرة عرفت في مختلف المجتمعات وعبر مختلف الأزمان، وإن لم يكن المصطلح كان قد انتشر واتخذ أبعاداً فلسفية مختلفة كما هي حاله الآن.

والاغتراب ظاهرة قديمة جديدة لم ترتبط بوقت محدد، أو حقبة زمنية معينة، إلا أنها تزداد في فترات يكثر فيها الاضطراب والقلق، وعدم الاستقرار في أوضاع المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لقد استطاعت هذه الظاهرة أن تفرض نفسها كموضوع أساسي على كثير من الكتابات الأدبية، والأعمال الفنية، والبحوث الاجتماعية والدراسات الفلسفية.¹⁶

وقد عد أكثر الباحثين ظاهرة الاغتراب ظاهرة إنسانية وجدت في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية، وفي كل الثقافات ولكن بدرجات متفاوتة، وذلك أن الاغتراب قد يعني الانفصال وعدم الانتماء، ويُعرف أيضاً بأنه وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط، والقلق.¹⁷

فعلى الرغم من هذا الشبوع، فإن مصطلح الاغتراب ما زال غير محدد المعالم، يختلف معناه تبعاً لاختلاف استعماله واستخدامه في بحوث ومعان تبتعد عن المعنى المشترك، مما يعطي المفهوم مضامين تختلف عن فحواه وتسبب له تشويشاً في الظواهر المرتبطة به.¹⁸

واستخدمت كلمة الاغتراب في اللغة العربية "ضمن سياقات عديدة ومتنوعة بدءاً من الشعر والأدب وصولاً للتصوف، إن كلمة الاغتراب أو الغربة تعني كما تقول معاجم اللغة العربية "النزوح عن الوطن"، أو "البعد والنوى" أو "الانفصال عن الآخرين، وهو معنى اجتماعي بلا جدل غير أن الذي لا جدل فيه كذلك هو أن مثل هذا الانفصال لا يمكن أن يتم دون مشاعر نفسية، كالخوف، أو القلق، أو الحنين تسببه، أو تصاحبه، أو تنتج عنه".

15 الاغتراب سيرة ومصطلح، محمود رجب، ط 4، القاهرة، دار المعارف، 1993م، ص: 9

16 الاغتراب: أحمد أبو زيد، مجلة عالم الفكر، مج10، ع1979، 1، ص131.

17 ينظر الاغتراب وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية، أحمد محمد الجرموزي، (أطروحة دكتوراة) ص: 25

18 الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً: قيس النوري، مجلة عالم الفكر، مج10، ع1979، ص3

وقد يتداخل المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ليعطيا مفهومًا واحدًا هو الابتعاد عن الناس بالجسم والفكر، فالإغتراب عاطفة قد تستولي على المرء ولاسيما الفنانين، الذين ربما يعيشون في قلق وضياح نتيجة شعورهم بالبعد عما يحلمون¹⁹.

وعند الانتقال إلى البحث عن معنى الغربية والإغتراب في بعض كتب التراث فإن معنى الغربية والإغتراب لا يبعد عن المعنى المعجمي، فأبو الفرج الأصفهاني في كتابه (أدب الغرباء) يرى بأن الغريب هو كل مشرد عن وطنه، ونازح عن داره يقول: "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ وعرفته، وسمعت به، وشاهدته من أخبار من قال شعرًا في غربة أو نطق في كربة"²⁰.

وأبو حيان التوحيدي ورد عنده المعنى الشامل للغربة ببعديها المادي، والمعنوي. وله رسالة "الغريب والغربة، وله رؤية في الإغتراب الاجتماعي"²¹

وكان مثالاً للمثقف المعذب في مجتمعه والذي خاب أمله ورجاؤه.

ويقول أيضًا: "فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربية وفقد الأحبة"²².

وأما في معجم المصطلحات الصوفية أن كلمة غربة تقال: في (الإغتراب عن الحال من النفوذ،

والغربة عن الحق غربه عن المعرفة)²³

النظرة لمفهوم الإغتراب في ضوء التصور الإسلامي

فكرة الإغتراب بكل معانيها وجدت في الفكر الإسلامي الديني والفلسفي على السواء، منذ القدم واستخدمت بعدة معانٍ.

وهناك من يرى أن الإسلام في جوهره ظاهرة إغتراب، وتحول اجتماعي نوعي بحكم كونه هجر عبادة الأوثان والأصنام، وثورة على الاجتماع غير العادل وإيداعه بنظام تسوده مبادئ الحرية، والعدالة الاجتماعية²⁴.

أشار فتح الله خليف " الإغتراب بالمعنى الإسلامي إغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، وإغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية وسلبية، فقهروا السلطتين جميعاً، سلطة الحاكم، وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات واعتزلهم الناس"²⁵.

19 الغربية والإغتراب في شعر نازك الملائكة، د. حافظ الشمري (بحث) م كلية الآداب، ص 131.

20 أدب الغرباء، بو الفتح الأصفهاني، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1972م، ص 32.

21 الاشارات الالهية، أبو حيان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ص: 79.

22 المرجع السابق، ص 32.

23 معجم المصطلحات الصوفية، عبد المنعم حنفي، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1988، ص: 87

24 الإغتراب والغربة في التراث العربي الإسلامي، د. مسارع حسن الراوي (بحث) مجلة المجمع العلمي العراقي، ص:

ويمكننا القول بأن " الاغتراب بالمفهوم الإسلامي يحمل في شقيه نوعين من الغربة غربة ممدوحة وغربة مذمومة: -

فالغربة الممدوحة (الاجتراب الإيجابي): هي غربة أهل الله وأهل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخلق، وهي الغربة التي امتدحها الله تبارك وتعالى، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها، قال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ).²⁶

الغربة المذمومة (الاجتراب السلبي): وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن أثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابها وأشياهم، أهل وحشة على كثرة مؤسسيهم، يعرفون في أهل الأرض على أهل السماء "

عن جندب بن عبد الله أنه سمع سفيان بن عوف يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن عنده: ((طوبى للغرباء)) فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: ((أناس صالحون، في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)) " ²⁷.

قال الله سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ أَلْ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)²⁸

ويضيف فتح الله خليف " بأنه إذا كانت الغربة قد أسرعت إلى الإسلام في عصوره المبكرة فما بال حال الإسلام في زماننا؟ يبدو أن الإسلام الحق الذي كان عليه الرسول وصحابته اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدا، وأهله غرباء بين الناس.

فالمؤمن الحق الذي رزقه الله بصيرة في دينه، وفقها في سنة رسوله، وفهما في كتابه غريب بين الناس: هو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في معاملته لسوء معاملتهم، غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على غير هواهم. وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وأخرته لا يجد مساعداً ولا معيناً²⁹ "

26 سورة هود: رقم الآية: (١١٦).

27 صحيح مسلم، للنووي، المجلد 1-2، ص: 325

28 آل عمران: رقم الآية (٧).

29 الاغتراب والإسلام، د. فتح الله خليف، (بحث) مجلة عالم الفكر، ص: ٨٥.

تعريف الاغتراب في الدراسات النفسية والاجتماعية:

أولاً: الدراسات النفسية

يعتبر مفهوم الاغتراب النفسي من المفاهيم الغامضة نظراً لثراء محتواه ، وتعدد مجالات استخدامه ، ولتنوع الأطر والمنطلقات النظرية لمن يتحدثون عنه ، إذ يكاد يمثل ميدان بحث مشترك للكثير من العلوم الإنسانية التي تتخذ من الإنسان محوراً لها³⁰ ، فقد استخدمه علماء الفلسفة والتربية وعلم النفس والطب النفسي والأدباء بمختلف أدواتهم التعبيرية من شعر وقصة ونثر ، ولتعدد مجالات استخدامات الاغتراب تعددت معانيه وكثرت تعاريفه.³¹

الاغتراب عند هيجل:

و قد حدد هيجل معنيين للاغتراب: **الأول يفيد بمعنى الانفصال**: وفيه يشعر المرء بداية بالوحدة الكاملة المتوافقة مع البنية الاجتماعية التي هو فيها، لكن عقب ذلك يمكن أن تنشأ الصراعات التي تسفر إلى عودة الإنسان إلى ذاته وسماته وشخصه هو، و عقب فقد هذه الوحدة الأصلية و إلى أن يتم تحقيق وحدة جديدة فإن علاقة الفرد بالبنية الاجتماعية تغدو علاقة تنافر، و يصل الفرد الغارق في تميزه الذي اكتشفه أخيراً إلى اعتبار البنية الاجتماعية التي اتحد معها سابقاً شيئاً آخر بصورة كاملة، و هنا تنشأ حالة عدم تطابق في الوعي بين الذات و البنية الاجتماعية، فينظر الفرد للبنية الاجتماعية الكلية باعتبارها شيئاً خارجاً عنه و معارضاً له فتصبح غريبة عنه، و في الوقت الذي يغترب فيه الفرد عن البنية الاجتماعية فإنه يغترب عن ذاته أيضاً، على اعتبار أن الإنسان هو عقل أساساً و أن الكلية هي أمر أساسي لكل ما هو عقلي في أساسه، بحيث إن انفصال الفرد عن الكلية يسفر عنها اغتراب الإنسان عن ذاته الجوهرية منتهيماً إلى أقصى قمم التطرف في التنافر مع ذاته، و فكرة الكلية التي يتحدث عنها هيجل لا تفهم إلا في أطار تصوره للمفهوم الجدلي الشامل، فالكلية ليست علاقة وجود ما دام كل وجود هو عنده متعيناً و جزئياً، و هي لا يمكن أن تفهم إلا بوصفها علاقة للفكر، أي نمواً ذاتياً لذات شاملة و فاهمة، و العالم هو وعي الإنسان الذاتي بالكلية الجوهرية للأشياء حيث لا توجد في نهاية المطاف أية حقيقة لا تتعلق أساساً بالذات الحية و لا تكون هي حقيقة الذات، و العالم يكون مغترباً غير حقيقي ما دام الإنسان لا يقضي على موضوعيته الجامدة و يتعرف على نفسه و على حياته الخاصة من وراء الصورة التابعة للأشياء و القوانين، و عندما يكتسب الإنسان هذا الوعي الذاتي في نهاية المطاف يكون بذلك قد اهتدى إلى الطريق الموصل لا إلى حقيقته الذاتية و حسب، بل إلى حقيقة العالم أيضاً، و هنا ينقلنا هيجل للمعنى الثاني للاغتراب الذي يعتبره عامل تجاوز و قهر للعامل الأول.³²

30 الاغتراب و علاقته بمفهوم الذات: آمال محمد بشير، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية التربية، قسم الصحة النفسية.

31 الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية شتا السيد علي، 1992، ص: 32.

32 ينظر: الاغتراب، لشاخت، (3-69)

الثاني الاغتراب بمعنى التخلي أو التسليم: الذي اعتبره هيجل معاكساً للمعنى الأول، فهو شيء مقصود تماماً كما أنه يتضمن تنازلاً واعياً أو تسليماً، وذلك بقصد ضمان تحقيق غاية مرغوب فيها وهي الوحدة مع البنية الكلية الاجتماعية، و بالتخلي يتم التغلب النهائي و الأخير على الاغتراب، إلا أن التخلي ينبغي أن يكون كاملاً ومستمرًا، إذ إنه بهذه الطريقة وحدها يمكن الحيلولة دون عودة الاغتراب، حيث أن قوة الفرد تمثل في جعل نفسه متوافقاً مع البنية الاجتماعية الكلية، أي في تنازله عن ذاته و بإقراره نفسه باعتبارها البنية و قد وُجدت على صعيد موضوعي، و إن الفرد يستطيع أن يحقق الوحدة مع البنية الاجتماعية الكلية فقط بتسليم ذاته، أي فقط بالتضحية بمصالحه و رغباته الخاصة إلى المدى الضروري، و ذلك هو التخلي على وجه الدقة.³³

الاجتراب عند ماركس

ماركس احتفظ بمفهوم الاغتراب لدى سالفه، لكن مع إدخال تغييرات أساسية، حيث اتفق مع فيورباخ بأنه حدد أصل الضياع من الإنسان ذاته، ولكنه سيجد تعليل ذلك لا في الدين ولكن في عملية البراكسيس (العمل) الإنساني، كما أنه سيحتفظ بالجوانب الجدلية لهيجل لكن تحليله سوف يعطيه مفتاح الانتقال من الجدل المثالي الهيجلي إلى الجدل المادي عنده.³⁴

"فالاجتراب لم يعد خاصية مميزة للوجود الإنساني في العالم، بل أصبح يُنظر إليه على أنه مرتبط بوجود الإنسان في عالم تاريخي معين هو عامل العمل المغترَب، وهو لا يعتقد بأن الاغتراب حالة أبدية لا يمكن التخلص منها، بل يربطها بظروف اجتماعية تاريخية خاصة بحيث أنه يمكن تجاوز تلك الحالة إذا ما غيرت الظروف المحيطة وقام نظام اجتماعي اقتصادي أفضل".³⁵

"تشير بعض الدراسات إلى أن الجذور الأولى للاغتراب هي جذور يونانية ويردها الكثير من مؤرخي الفلسفة لكتابات أفلاطون فهو أول من أسس لفكرة الاغتراب بوعي، حيث يعد فكره بذاته أول اغتراب واعٍ، عندما قسم العالم إلى مطلق ووجود، والمطلق والوجود هو عالم الظلال والصور المشوشة ثم كانت جمهوريته تجسيداً لهذه الفكرة الاغترابية".³⁶

أما العالم ايرك فروم Erich Fromm في كتابه المجتمع السليم Sane Society فيقترح مجموعة صفات خاصة بموضوع الاغتراب Alienation ومشابهة إلى درجة كبيرة للصفات التي ذكرها كارل ماركس. الاغتراب بالنسبة للعالم فروم هو تلك الحالة التي لا يشعر فيها الإنسان بأنه المالك الحقيقي لثرواته وطاقاته بل يشعر بأنه كائن ضعيف يعتمد كيانه على وجود قوى خارجية لا تمت لذاتيته بصلة.³⁷

33 نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع، د. السيد علي شتا، 1992، ص.174

34 الاغتراب لشاخت (124-169)

35 الاغتراب لمحمود رجب (16-21)

36 الاغتراب والعبقرية: عادل الألوسي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص: 12

37 المجتمع السليم، ايريك فروم، ترجمة: محمود محمود، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960، ص: 34

وعرفه أيضًا بأنه نوع من الخبرة التي يري الشخص غريبًا عن ذاته، فيشعر أنه لا يمكنه التحكم في أفعاله بل تسوقه أفعاله، وينساق وراءها مما يجعله بعيد الاتصال عن ذاته وبعيد الاتصال بأي فرد آخر ويرى فروم أن مفهوم الاغتراب لا يتضمن فقط الإنسان والآخر وإنما يشمل أيضًا العلاقة بين الإنسان وذاته.³⁸

ويشير معجم علم النفس المعاصر إلى أن الاغتراب عملية اجتماعية تتحول فيها نشاطات الإنسان وصفاته وقدراته إلى شيء مستقل عنه ومسيطر عليه.³⁹

ويعرفه هاينز Heinz 1996: الابتعاد عن الخيارات العملية في الحياة اليومية، يبدأ من الفشل في تكوين الهوية ويرتبط بدلالة خبرات التعلم لدى الشباب، وترتبط هذه الخبرات بخيارات المستقبل، والاختيارات الاجتماعية، وكذلك ترتبط بنمو الميول.⁴⁰

وهناك أسبابًا ذاتية وموضوعية تؤدي إلى الاغتراب، ويرد الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية ديناميكية تحدث في نمو الفرد، أما الأسباب الموضوعية فهي الظروف المحيطة بالفرد وما يكونها من عوامل حضارية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية.

ومن هذا المنطلق فأنتني أتفق مع الرأي الذي يشير إلى أن اغتراب المبدعين وهم نخبة متميزة في المجتمع ذات تكوين نفسي مميز سيكون أشد أثرًا وتأثيرًا في حفر مسار الاغتراب حتى تصل إلى ذروتها المنشودة.

وهناك كذلك مفاهيم للاغتراب مستمدة من النظرة الفرويدية والتحليل النفسي، فقد صور فرويد الإنسان في ظل الحضارة الأوربية لا يعي كُنْها، موزعًا في صلب داخله مطارداً بالشعور بالذنب، متنكرًا لرغباته الطبيعية مصابًا بالتوهم، منشغلًا بصحته النفسية ونتيجة هذا الكبت وما يرافقه "تصبح الحدود الفاصلة بين الذات والعالم الخارجي غامضة، كما أن هناك حالات تظهر فيها أجزاء من جسد الإنسان بالذات، وحتى من حياته الفكرية والعاطفية".⁴¹

وقد عرف بتروفسكي الاغتراب في معجم علم النفس المعاصر على أنه مصطلح يشير⁴² إلى العلاقات الحياتية لشخص ما مع العالم المحيط والتي يبدو فيها نتاج نشاطه وذاته وكذلك الأفراد والفئات الاجتماعية الأخرى كنفيس للشخص وهذه المناقضة تتراوح من الاختلاف إلى الرفض والعداء ويتم التعبير عن ذلك من خلال مشاعر العزلة والوحدة والرفض وفقدان الأنا والذات.

38 المرجع السابق، ص: 35

39 الاغتراب النفسي بين المفهوم والإرشاد النفسي الكليلنيكي، د خالد محمد عسل، وفاطمة محمود مجاهد، ص: 23.

40 معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجار، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر 1985م، ص: 97

41 الاغتراب في الثقافة العربية ص50

2 بحوث ودراسات في علم النفس، د. أمل الأحمد، 2001، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر.

ومن التعاريف الشاملة للاغتراب بكل جوانبه النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية التعريف الذي قدمه محمود جاد بأن الاغتراب "عبارة عن أحاسيس ومشاعر سلبية وأنه معتقدات ساخرة لدى مجتمع تجاه سياق اجتماعي أو ثقافي أو سياسي معين كما أن هذه الأحاسيس والمشاعر والمعتقدات قد تكون تجاه الذات (تكوينها أو نتائجها المادية أو الفكرية) أو تجاه الطبيعة حيث يقوم الانفصال على عدم التوافق بين الخصائص الشخصية للفرد أو الفئة والجماعة أو الطبقة وبين الدور الذي تؤديه هذه الجماعة أو الفئة أو الطبقة.

ويذكر سعد المغربي أيضاً أن مفهوم الاغتراب قد اتسع ليشير إلى فقدان وافتقاد علاقة وبخاصة عندما تكون العلاقة متوقعة ويظهر فيها الأشخاص والمواقف المألوفة للشخص بأنها غريبة عليه.⁴³

مظاهر الاغتراب النفسي: 44

أورد علماء النفس عدداً من المظاهر للاغتراب من خلال ما قدموه من دراسات وبحوث في هذا المجال ، وفيما يلي عرض لأهم مظاهر الاغتراب التي شكلت عوامل مشتركة للعديد من الأبحاث والدراسات:

1- فقدان القوة:

يتمثل في شعور الفرد بأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يتفاعل معها ، وفقدان الشعور بأهميتها ، وأن الفرد لا يستطيع توقع ما سيحدث له مستقلاً ، ولا يجد تفسيراً مقنعاً لما يحدث من تغيرات في حاضره.

2- اللامعنى:

الاجتراب هو اللامعنى، وهكذا فإن الاغتراب يظهر عند الفرد الذي لا يكون لديه وضوح فيما يعتقد ، وكذلك عدم توفر المستويات الدنيا من الوضوح في اتخاذ القرار ، فالشخص المغتراب يتسم بالتوقع المنخفض لإمكانية القيام بأي نشاطات وسلوكيات.⁴⁵

3- اللامعيارية:

تشير إلى شعور الفرد بان الوسائل غير المشروعة هي المطلوبة اليوم، وإن الإنسان يحتاجها لإنجاز أهدافه، مما يشعر الفرد بضياح القيم وفقدان المعايير.⁴⁶

43 ينظر: سعد المغربي، 1982، ص: 252.

44 ينظر: الاغتراب النفسي بين المفهوم والإرشاد النفسي الكلينيكي د خالد محمد عسل، وفاطمة محمود مجاهد، ص26-29-28-27

45 الاغتراب النفسي: إبراهيم عيد، ص: 353

46 الاغتراب النفسي ص: 170

4- العزلة الاجتماعية: هي عبارة عن حالة ينفصل بها الفرد عن المجتمع والثقافة ، مع الشعور بالغربة وما يصاحبها من خوف وقلق ، وعدم ثقة بالآخرين ، وتفرد الذات والإحساس بالدونية تارة وبالتعالى تارة أخرى.⁴⁷

5- الغربة عن الذات:

يعبر هذا المفهوم عن شعوره بانفصاله عن ذاته لعدم القدرة على إيجاد الأنشطة المكافئة ذاتياً ، وشعوره بأن ذاته الخاصة وقدراته عبارة عن وسيلة أو أداة ، ويعبر الفرد عن ذلك بعدم الانتماء واللامبالاة.⁴⁸

ثانياً: الدراسات الاجتماعية

وقد أشار قاموس «العلوم الاجتماعية» إلى أن الاغتراب حسب الاستخدام الشائع في العلوم الاجتماعية يشير إلى حالة الغربة، أو الانفصال بين الأجزاء، أو الشخصية والجوانب الدالة على الخبرة الخارجية، وبذلك يشير المصطلح للحالة الموضوعية للاغتراب والانفصال، وحالة شعور الشخصية المغتربة، وما يعنيه ذلك من انفصال بين الذات، والعالم الموضوعي، وبين الذات وجوانبها التي صارت منفصلة.⁴⁹

أما إحسان محمد فقد عرف الاغتراب في موسوعته علم الاجتماع بأنه الحالة السيكو اجتماعية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريباً وبعيداً عن بعض نواحي واقعه الاجتماعي.⁵⁰

وعرف أيضاً فريدريك معتوق في معجم العلوم الاجتماعية الاغتراب بأنه: " مفهوم يقصد به استلاب الشخصية المميزة للفرد سواء في العمل أو في غير العمل، وإن وضعية الاستلاب هذه تترافق مع وضعية قهر يمارسها الشخص أو الجهة أو المؤسسة التي تسلب الفرد وتعريه من معنوياته"⁵¹.

وقد سعى علماء الاجتماع لدراسة ظاهرة الاغتراب لمعرفة أبعاد العلاقة بين ظاهرة الاغتراب والظواهر الاجتماعية الأخرى مثل: التغيير والتوازن في النسق الاجتماعي، فاستخدم «توكيفل» الاغتراب بوصفه صياغة للحط من قدر الإنسان وإهدار فريدته نتيجة لمجموعة من العوامل المصاحبة لظروف التغييرات الاجتماعية والتكنولوجية الحديثة، والتي ترتب عليها جعل الإنسان مجرد ترس في الآلة، وفصلته عن قيمه الراسخة وروابط مجتمعه، وسلبته إرادته.⁵²

47 الاغتراب النفسي بين المفهوم والإرشاد النفسي الكلينيكي، ص: 30-31

48 المجتمع السليم: إريك فروم، ص: 297

49 معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، 1993م، ط1

50 موسوعة علم الاجتماع، إحسان محمد، الدار العربية للموسوعات، 1999م

51 معجم العلوم الاجتماعية، فريدريك معتوق، أكاديمية انترناشونال، 1998م، ط1،

52 المرشد إلى الديمقراطية" الكسي" توكيفل"، ترجمة بسام حماد، ط1، ص:

وقد قسم علماء الاجتماع الاغتراب إلى عدة أنواع وهي كالآتي: ⁵³

- 1- **اغتراب تكويني** وهو الذي يحصل لدى أولئك الذين يشعرون بضياح حياتهم الفردية وما فيها من علاقات وروابط بشكل لا يسمح بإعادة بنائها من جديد.
- 2- **الرفض الكوني** وهو يتضح عند المنبوذين والمهمشين في المجتمعات العنصرية أو العرقية، ويكون ذلك الاغتراب نوعاً من النفي أو الطرد من عالم الدفء العاطفي، والحياة ذات الأهداف الواضحة.
- 3- **الافتقاد التاريخي أو الزماني** حين تتبدل القيم والعادات نتيجة التغيير الاجتماعي ويحمل مفهوم الاغتراب دلالتين؛ أحدهما إيجابية، والأخرى سلبية ومن الملاحظ أن الدلالة السلبية قد طغت على المفهوم في الدراسات الاجتماعية والنفسية، بينما طغت الدلالة الإيجابية على المفهوم في النواحي الإبداعية.

الفصل الثاني

ظاهرة الاغتراب في الأدب العربي

يعد مفهوم الاغتراب ظاهرة إنسانية يتميز بها الإنسان دون غيره من الكائنات، فهو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن ينفصل عن ذاته وقد ينفصل عن مجتمعه أو عن كليهما معا. وتختلف درجة الإحساس بالاغتراب باختلاف الظروف التي يعيشها الفرد كما وأن الأفراد يتباينون في شدة إحساسهم به. ولم يخل الأدب العربي كغيره من الآداب العالمية من مظاهر القلق والخوف والوحدة والغربة، فظاهرة الاغتراب تضرب بجذورها في عمق المجتمع الإنساني، إلا أن عصور الحضارة الإنسانية، لم تكن تعاني معاناة عميقة من حالات اغترابه قاسية، بشتى مفاهيم الاغتراب، ولكن العصر الحالي، ربما يُعد عصر الاغتراب بامتياز بتنوع مفاهيمه وحالاته التي توغلت في عمق المجتمع وفتكت به. ولعل من الحقائق المؤكدة أن جل الأدب العربي ومنه الشعر قام على غرض إنساني واسع ممتد، وهو التلاؤم بين الأديب وواقعه الروحي والسياسي والاجتماعي أو تنافرهما، وبلي ذلك شعور بالانتماء الذي يعقبه الرضا أو الغربة التي يعقبها الحنين والفقْد، ففكرة الغربة والتمرد، والإحساس بالتمزق والضياح لم تكن بعيدة عن فكرة الإنسان ومشاعره على مر العصور.

الغربة والاعتراب عبر العصور الأدبية لدى شعراء العربية.

الاعتراب في العصر الجاهلي

تبلور موضوع الاغتراب في الشعر الجاهلي في عدة أشكال وكان الأول منها بمثابة غربة وجودية تشمل النوع الإنساني بعامته أمام الزمان والمكان اللذين يمثلان الإطار الوجودي ⁵⁴ للإنسان، ففي مواجهة

53 الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً، قيس النوري ص: 33 وما بعدها.

54 المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي: الالتزام، والاعتراب، والتمرد: د. حسني عبد الجليل يوسف، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1989، ص: 15

الزمان يشعر الإنسان بتناهيه أمام لا تنتهي الزمن فما يشغله من وجوده الفردي لا يمثل سوى مدة زمنية متناهية في الصغر أمام الزمن الممتد من الأزل إلى الأبد.⁵⁵

كان للقلق الذي يسيطر على الإنسان العربي من ذلك العصر، وغياب السلطة المركزية والدين فضلاً عن العامل الذاتي، والطبيعي الأثر الكبير لنشوء ظاهرة الاغتراب منذ القدم.

وقد حمل البدوي ضروباً من الإحساس بالغربة في هذه الصحراء المترامية.⁵⁶

وتعد المقدمات الطليية في مجملها نوعاً من التعبير عن حالة اغترابه مكانية، يفتقد فيها الشاعر أهلاً ووطناً، وماضياً سعيداً حياة كانت في يوم ما خصبة وممتعة. فإذا تجاوزنا المقدمات الطليية فإننا نجد حالات اغترابية من نوع آخر، مثلما نجد عنتره العبسي التي تمثل حالة عنصرية، ويمثل عنتره بحد ذاته لوناً من ألوان الاغتراب في العصر الجاهلي وهو الاغتراب العنصري أو العرقي.⁵⁷

المال مالكم والعبء عبدكم فهن عذابك عني اليوم مصروف

تنسى بلاني إذا ما غارة لقيحت تخرج منها الطولات السرايف⁵⁸

ويقول عنتره:

لا شك للمرء أن الدهر ذو خلف فيه تفرق ذو إلف ومألوف⁵⁹

لذلك كانت مطالع القصائد الجاهلية في كثير من الأحيان حديثاً عن الأطلال -بقايا وطنه المهجور- وإحساساً بالغربة بعد الأوس. وحينئذ طويلاً إلى ديار أحبابه الراحلين، والحنين إلى الماضي من خلال شيخوخته أيضاً وبكائه على أيام الشباب.

تطالعنا مقدمة قصيدة امرؤ القيس:⁶⁰

ففا نبك من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل

فتوضح فالمقراة لم يغف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعز الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

55 المواقف الإنسانية، د. حسني عبد الجليل، ص: 13

56، الغربة في الشعر الجاهلي، د: عبد الرازق الخشروم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982م، ص: 15

57 الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع، سميرة سلامي، ص: 69.

58 ديوان عنتره (270-271) تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، ط2، 1983/1403م

59 المرجع السابق، ص 27.

60 ديوان، امرؤ القيس، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2004، 4، ص:

وقد عرف الجاهلي ضرورًا من الغربية، عبر عنها الشعر وقد أسهمت الطبيعة الصحراوية وأسلوب الحياة الرعوي، والنظام القبلي القائم على احترام العصبية، والتنقل الدائم في تحديد غربة الإنسان الجاهلي. وقد يولد الإنسان لأمه سوداء فيظل لونه يلاحقه أو يكون فقيرًا فيتصعلك، أو يرتكب خطيئة فيخلع، أو يؤسر في إحدى غزوات القبائل الكثيرة، أو يسجن أو يضطر إلى النزول لقوم لا يمت إليهم بصلة النسب فيكون في كل هذه الحالات غريبًا غربة القهر، والحياة والمجتمع، أو رفض الإنسان لقيم مجتمعه أو بالعصبية التي قام عليها النظام القبلي خاصة، فيحن إلى الماضي ويتذكر الأيام الماضية بحلاوتها، وعزها وحين يفكر في غيره ويستشعر مأساة الموت التي تخيم شبحًا فوق حياته، وحين يرفض قيم مجتمعه الروحية والدينية فإن كل هذا تم بارادته وبرغبة منه ولهذا فإننا نسمي اغترابه اغترابًا عن الذات، وإن كل غربة حصلت قهرًا غربة، وكل غربة حصلت طوعًا اغترابًا.

وجدت صنوفًا من الاغتراب يحييهاها الإنسان ضمن مجتمعه فهناك ذلك الذي منحته الطبيعة السوداء فعاش منبؤدًا محتقرًا وحاول أن يكسب المجد الاجتماعي من خلال الحب والحرب⁶¹ يقول عنتره العبسي واصفا غربته بين ذويه:

إذا الريخ هبّت من ربي العمّ السعدي
طفّا بردها حرّ الصبابة والوجد
وذكرني قومًا حفظتْ عهدهم
فما عرفوا قدري ولا حفظوا عهدي⁶²

وهناك الدعي والخليع، فالأول لم يكن ينتمي إلى قبيلة كبيرة تحميه وترعى شؤونه ولهذا كان لا بد من الانتماء إلى قبيلة أخرى ولكنه يظل فيها منبؤدًا ويعامل معاملة خاصة هي أدنى من معاملة ابن القبيلة ذاتها، أو قد يرتكب أحد أفراد القبيلة خطأ فيخلع منها ويهيم على وجهه بحثًا عن الحماية فيلجأ إلى أخرى فيعامل معاملة قاسية فيها أيضًا، وقد يتحول إلى متمرّد صعلوك فيشكل مع أمثاله جماعات هجرت قبائلها ولجأت إلى الصحراء تعيش عيشة الوحوش، وتنقض على المجتمع الذي طردها لفقرها، وهناك غربة القهر، وغربة السجين والأسير، وقد يعاني الجاهلي من غربة الذات التي تضطره للانصراف عن واجبات العصبية حين يجد نفسه مظلومًا ووجد من العبث أن يلتزم بكل ما يمليه الناس عليه، ويستهيئ عابقًا بالكثير من عاداتها وشؤونها

كما عانى طرفة بن العبد من الاغتراب حين خرج على مجتمعه وتمرد على قيم القبيلة فتحامته العشيرة، فقد اكتشف من الحياة والموت ولم يعد يابيه لأي شيء سوى لذاته وتمرده واستهتاره. وكان ذو الرمة ضحية الاغتراب الاجتماعي بسبب مرضه العصبي ثم العاطفي حين أحب (مئة) قرابة عشرين عامًا.⁶³

61 المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي " الالتزام، والاغتراب، والتمرد: حسني عبد الجليل يوسف، ط: 1، ص: 77

62 ديوان عنتره، ص: 23.

63 ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص: 32.

وغربة طرفه وموقفه من قبيلته ومجمعه لخصها في البيت التالي:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَخْضَرَ الْوَعْيَ وَأَنْ أَشْهَدَ النَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي⁶⁴

إن طرفه عاش غريباً مع نفسه ومغترباً مع قومه، وفي غير قومه فانسابت مشاعر الغربة إلى فنه فصبغ بالحنين والحزن والحنو وكشف عن أبعاد إنسانية مست مشاعر الأعمق.

وتبقى ملامح تفرد طرفه واغترابه ماثورة في ثنايا قصائده تحمل دلالاتها العميقة بإزاء ملامح انتمائه الذي ظل يواجهه بمعضلة الموازنة بين أن يكون أو لا يكون، وتلك هي المعضلة التي استدرت هذا القلق الموجع بين الانتماء والاعتراب ثم خلفت آثارها على صفحة شعر سيظل ميداناً رحباً لتأمل ظاهر نفسية وفكرية قل أن يفصح عما يضاهاها ديوان شاعر جاهلي.

يقول طرفه:⁶⁵

وظلمُ نوي القريبى أشدُّ مضاضةً على المرءِ من وقَعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ
فذرني وخُلقي إنني لك شاكرٌ ولو حلَّ بيتي نائياً عندَ ضرغدِ

لقد شكل الصعاليك (ذاتاً) جديدة في المجتمع الجاهلي مقابل المجتمع نفسه، وكان بعض الصعاليك فقد انتماءهم إلى قبائلهم، وتحلوا من روابط المجتمع، وكان للصعاليك الشعراء فخر ذاتي بأنفسهم.⁶⁶

ومن يتتبع شعرهم يلاحظ أنه يعبر عن مرحلة (العزلة) لدى (الذات) وهم خير من يمثل الاعتراب

الذاتي.⁶⁷

خلاصة ذلك: قامت (ذات الصعاليك) على بلورة ذات جديدة للإنسان الجاهلي، قوامها إحياء القيم التي فقدها المجتمع أو تخرى عنها، وقد واجهت هذه الذات الجديدة أنماطاً من التعامل مع الآخر من قبله وموافقته، والانتماء إليه، مروراً بالعزلة عنه والشعور بقلق وحيرة الاعتراب.

ويقول عروة بن الورد:⁶⁸

ألم تعلمي يا أمَّ حسان أننا خليطاً زِيالٍ ليس عن ذاك مقصرُ

64 ديوان طرفه بن العبد، اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص 31.

65 ديوان طرفه، ص: 26

66 مجلة فصلية محكمة تصدر من اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد المزدوج 120- 121 مقالة ثنايا الأنا والآخر بين

الصعاليك والمجتمع الجاهلي، عبدالله محمد طاهر، ص 169

67 ينظر: الشعراء الصعاليك: د يوسف خليف، ص72، 73

68 ديوان عروة بن الورد، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر، دار الكتب العلمية، لبنان، 1998م ص58

دعيني للغنى اسعني فأنني رأيتُ الناس شرهم الفقيرُ

لذلك تميز الصعاليك بصفات فردية أهمها نزعة التحرر من السلطة والنفور منها، فكانوا من أكثر أفراد المجتمع قدرة على انتهاك أعرافه والتنكر لها. وظهر عند الجاهليين الاغتراب الوجودي (الزماني)

الاغتراب في العصر الإسلامي والأموي

كان لمجيء الإسلام أثرٌ واضحٌ في الحياة العربية، فقد أسهم في تغيير الفكر الجاهلي، والقضاء على العادات السيئة، وبيزوغ فجر الإسلام تتضاءل القبيلة ليحل محلها دستور إسلامي عادل، وكان لهذه التغييرات الحاصلة دورها في إشاعة الأمن والأمان في النفوس الضائعة المضطربة. لقد أخرج الإسلام العرب من ظلمات حياتهم الجاهلية الوثنية إلى أضواء حياة روحية⁶⁹

وكان لتعاليمه السمحة الفضل في التخفيف من حدة القلق والاعتراب النفسي الذي كان يأسر أنفسهم ويؤرقهم، حيث احتوت تعاليمه نبذ كل ما يزرع العلاقات السوية والقوية بين الناس، ففضى على العصبية، وآخى بين القبائل، وحرّم العادات الجاهلية كالأخذ بالنأثر، وأصبح الناس سواسية، لأن معيار التفرقة بينهم هو التقوى (المعايير الروحية) وليس المعايير المادية الجاهلية التي تمثلت في الطبقة كأساس في تقييم الإنسان، فالمال إما أن يرفع صاحبه إلى منزلة عالية أو يخفض مستواه.

ونضرب هنا أمثلةً ندلل بها على امتداد هذه الروح وهذه الرؤية لمفهوم الغربة في شعرنا القديم؛ تأكيداً وتمثيلاً لهذه الرؤية الشعرية والفنية في الشعر الإسلامي.

ها هو الشاعر مالك بن الربيع يشكو الغربة والبعاد، ويشعر بالشوق والحنين إلى دياره وأوطانه، وحين شارف على الموت لا يتمنى شيئاً في تلك اللحظات الحرجة إلا أن يزور بلاده، وينام فيها ليلة، ينظر إلى نفسه غريباً وحيداً فيبكي على نفسه، ويحن إلى الذين كانوا يشفقون عليه وهنّ أمه وأخواته وخالته اللواتي يظن أنهن لو رأين حالته لبكين عليه، وكذلك زوجته التي تهيج البواكي فحنينه لهن جميعاً.

يقول في قصيدته: ⁷⁰

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلــــــــــــــــة	بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه	وليت الغضا ماشي الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا	مزار ولكن الغضا ليس دانيا

⁶⁹ التطور والتجديد في الشعر الأموي" شوقي ضيف، دار المعارف، الاسكندرية، ط 6، د.ت، ص: 11
⁷⁰ ديوان مالك بن الربيع، تحقيق الدكتور: نوري حمودي القيسي، مجلة معهد المخطوطات العربية" مج 15، ج 1

ألم ترني بعث الضلالة باهـدى وأصبحت في أرض الأعادي بَعْدَمَا
وأصبحت في جيش ابن عفان غازياً أراني عن أرض الأعادي قاصياً

أما في العصر الأموي فكانت بواعث الاغتراب مختلفة عما كانت عليه في العصر الجاهلي، إذ اتخذ الحس الاغترابي شكلاً آخر مرتبطاً بمعاني الهجرة إلى الله وترك ملذات الدنيا وزخرفها.

ونأتي إلى العصر الأموي فظهر الاضطراب النفسي الذي نتج عنه اغتراب فردي وجماعي أثر على حياة بعض الشعراء وعلى نتاجهم الشعري، وظهرت ألوان جديدة لبواعث الاغتراب ومنها النفي والسجن والاضطهاد والتهميش لفئة من المجتمع على حساب فئة أخرى وكل ذلك جمع تحت الاغتراب السياسي، والاجتماعي، والعاطفي.

ولنقف قليلاً عند جميل معمر الذي يعاني الغربة والاضطراب بعد أن رحلت عنه بثينة حينما قام والدها بتزويجها من رجل آخر، ورحلت معه يقول: ⁷¹

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلاً بُوادي القري إني إذن لسعيد
وهل ألقين سُعدي من الدهر مرة وما رث من حبل الصفاء جدي
وقد تلتقي الأشتات بعد تفرق وقد تدرك الحاجات وهي بعيد

قد فرض الاغتراب المكاني نفسه وكان نتيجة طبيعية لمجموعة من العوامل الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية. ⁷²

ونجد بعض تجليات الاغتراب في شعر ذي الرمة، حينما صور نفسه وحيداً في العراء بجوار بقايا أطلال تذكره بأحبائه.

إذ يقول: ⁷³

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الثرب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفي والغربان في الدار وقع

71 ديوان جميل بثينة، دار الكتاب العربي، جمعه: إميل يعقوب، ص 31-32

72 الاغتراب في الشعر الأموي، د. فاطمة حميد السويدي مكتبة مدبولي، ص: 486-487

73 ديوان شعر ذي الرمة، عنى بتصحيحه كارليل هنري، كلية كمبردج، مطبعة الكلية، د.ب، 1961م، ص: 95

فمن الناحية الاقتصادية تفرقت قبائل كثيرة في طلب الرزق، ووقع على شعرائها عبء التصريح بمعاناتها أمام الولاة، بالإضافة إلى أنه ظهر في المجتمع مقدمات لطبقية وأخرى فقيرة تصرخ عالياً في سبيل تأمين قوت صغارها: 74

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي امْتِنَاحٍ
تُعَلَّنُ، وَهِيَ سَاغِبَةٌ، بَنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْبِ الْقَرَّاحِ

وعلى صعيد العامل السياسي كانت الفتوحات الإسلامية وما نتج عنها من تمركز في الثغور والأطراف مصدراً دائماً للاغتراب وتوليدته، فقد كثر التذمر من البعوث والغزوات، وكانت الدولة تلجأ أحياناً للتخلص من المتمردين الداخليين.

كما نجد كمّاً من النصوص الاغترابية وتعود هذه إلى توسع شقة الخلاف، وانتشار الأحزاب المناوئة للحكم الأموي.

وحين تقترب من العامل الاجتماعي الذي يتأثر بالسياسية والاقتصاد معا سوف نجد التمرد على القبليّة وأوضاعها يشابهه في بعض حالاته التمرد على سلطة الدولة المركزية، وسوف نجد أن الحب والزواج يتحولان إلى سبب آخر للاغتراب.

إن المتأمل في الشعر الأموي يدرك غناه بالقصائد المعبرة عن ظاهرة الاغتراب سواء المكاني أو النفسي، أو الاجتماعي مع ظهور نمط جديد يمكن إدراجه ضمن هذا الأخير، وذلك بسبب مجموعة من العوامل والظروف التي تميز بها العصر الأموي عن غيره من الأعصر السابقة.

نماذج لشعر الاغتراب في هذا العصر

الاغتراب المكاني في شعر الصمة القشيري: 75

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسِ تَهْوِي بِنَا بَيْنَ الْمَنِيْفَةِ فَالضَّمَارِ
تَمْتَعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ

ومن الاغتراب السياسي: نشدت غربة شعراء الشيعة أمام خوفهم من بني أمية، وواجهوا غربتهم بالزهد في الدنيا يقول حرب بن المنذر الجارود:

فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا كِفَافٌ يَقِيمُنِي وَأَثْوَابُ كِتَانٍ أَزُورُ بِهَا قَبْرِي⁷⁶

74 شرح ديوان جرير، ص: 109

75 ديوان الصمة القشيري، جمعه وحققه: د. عبد العزيز الفيصل، النادي الأدبي، الرياض، 1401هـ

76 البيان والتبيين، الجاحظ 3/ 365

في العصر العباسي:

الاغتراب أحد الظواهر التي عانى منها المجتمع في العصر العباسي وصورها الشعراء خلال تجاربهم الإبداعية، ومما عمق غربتهم ما شهده ذلك العصر من تحولات سياسية، واجتماعية وثقافية، واقتصادية. حين تحكم في مجريات الأمور العناصر غير العربية؛ مما أدى إلى عزلة بعض أفراد المجتمع بمن فيهم الشعراء فانسحبوا من الحياة الاجتماعية، واختلفت غربة كل منهم بحسب الواقع الذي يعانیه.⁷⁷

فظهر من اغتراب عن مجتمعه، أو عن ذاته؛ بسبب البحث عن الأفضل، وأخذ الاغتراب الاجتماعي نتيجة لذلك مظاهر متعددة، كما عجز بعض الشعراء عن التكيف مع هذا الواقع فانفصلوا عن المجتمع وقطعوا الأسباب المتصلة بمتاع الدنيا الزائل.⁷⁸

وخلال ذلك ظهر في نتاج بعض الشعراء الاغتراب الإبداعي وذلك حين يفصل الشاعر عما كان قد أبدعه من نتاج شعري في فترة سابقة من حياته الفنية ويجد أن موهبته الإبداعية قد انفصلت عما يتم إبداعه لدى معاصريه، وأنه قد أضطر إلى أن يسلك اتجاهًا جديدًا.⁷⁹

لقد كان أبو نواس وبشار بن برد من أصحاب الفريق الأول؛ الذي جنح إلى اللذة واستغرق في اللهو معبرًا عن اغتراب نفسي، وكان ما بدر منهما من تهتك خلقي وانغماس في الشهوات ردة فعل قوية على المجتمع من ناحية، وعلى الزمن أو الوجود من ناحية أخرى.⁸⁰

واغتراب المتنبي يرتبط بالخصائص الذاتية، وكثرة الشكوى، والشعور بالتميز النفسي، الذي يدفع الشاعر مباشرة إلى الشعور بالغربة، وسيطرة أحاسيس تصادمية تظل محاصرة له في تجاربه، مع اختلاف نوازعها الموضوعية والنفسية، وأعتقد أن ذلك كان دافعا من دوافع التعالي والفخر الذي كان يصل إلى درجة الحنق والغيط من تفاوت الآخرين وتقلبهم في التميز وهم دونه كما كان يرى ويتصور، وقد يرجع ذلك إلى عقيدة راسخة في نفسه نابعة من عالمه الذاتي الذي كان يغرى فيه هذا النزعة المتعالية، دون أن يتبصر حال الآخرين، وأسباب تميزهم وارتياحهم معالي الأمور، وإذا نظرنا إلى شعره نجد أن تحليله لنفسه مقدم على رؤيته للآخرين، وأن بحثه عن المكانة والصدارة في الملك والثروة والجاه، دوافع غريزية كانت وراء غربته في مستويات عديدة لم يخل منها مستوى نفسى معنوي أو حسي مادي، وذلك لإشباع غريزته وتحقيق تواجه المتميز يقول المتنبي في صباه:⁸¹

عش عزيزاً أو مُت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

77 مجلة دراسات، تجربة الاغتراب عند الشعراء العباسيين، أ.د. صالح بن عبد الله بن عبد العزيز الخضير، ص: 2

78 الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع: سميرة سلامي، ص: 2

79 المرجع السابق، ص: 17

80 " أبو النواس بين العبث والاغتراب" أحلام الزعبي، دار العودة، بيروت، 1981، ص: 20

81 ديوان المتنبي"، ص 523 - 524

فاطلب العز في لظى ودع الـ
لا بقومى شرفت بل شرفوا بي
ذ ل ولو كان في جنان الخلود
وبنفسى فخرت لا بجـدودى

وعلى مستوى الغربة الشخصية التي عبّر عنها شعراء العريبيّة على مدار تاريخ الشّعـر العربي، نجد أبيات المتنبي التي يشكو فيها غربته بمصر بعد أن ترك بلاط سيف الدولة الحمداني، الذي كان بالنسبة إلى المتنبي بمثابة البطل الذي يقتحم الملمات، ويُكَلِّ بالأعداء، ثم ما هو ذا المتنبي يلُم به المرصُ مع غربته وانفراده بمصر دون صديقٍ أو أنيس أو سميرٍ يُواسيه ويُخفّف بعضًا من هذه الغربة، يقول المتنبي مخاطبًا الحُمى:

أبنت الدهر عندي كلُّ بنتٍ
فكيف وصّلت أنت من الزحام
جرحت مجرحًا لم يبق فيه
مكأن لسؤيوف ولا السهام

إن هذا المد النفسي الجارف الذي يعلى من إمكانية الشعور بالاغتراب منذ الصغر كان سببًا من أسباب الغربة النفسية التي شاعت في تجارب المتنبي، والتي تحولت فيما بعد إلى غربة مادية مكانية، حيث لم يستقر به الحال في مكان لم يجد فيه تميزًا نفسيًا ومعنويًا وماديًا، حتى كانت رحلاته بين البلاد والأمصار ليس بحثًا عن المال كما كان يظن البعض، وإنما بحثًا عن الملك وحب التقوق والسيادة، والشغف الروحي بالوجود في أماكن لا يتواجد فيها إلا من هم على شاكلته، وارتبط الاغتراب بحياة أبي الطيب التي تعرض لحقد الحاسدين، وكان لابي فراس الحمداني اغترابه هو الآخر بسبب مرارة الأسر وعذابات الشوق.⁸²

ونقف قليلاً عند بعض الشعراء العباسيين الذين عانوا هذه الغربة، فتركوا شعراً خالداً في هذا المجال يكشف عن مدى تغلغل الحزن في أعماقهم، فهذا أبو فراس الحمداني الذي وقع أسيراً في أيدي الروم، فمأطله سيف الدولة بالفداء مما أثار وجد الشاعر، واشتد حنينه إلى أهله وأصدقائه فعانى من الغربة والاغتراب ما عاناه، يقول في غربته عن أهله وذويه:⁸³

أراني وقومى فرقتنا مذاهب
وأقربهم مما كرهت الأقارب
وإن جمعنا في الأصول المناسيب
وحيد وحولي من رجالي عصائب
غريب وأهلي حيث ما كر ناظري
فأقصاهم من مساءاتي

وعند التأمل في شعر أبي نواس نجد فيه تعبيراً حاداً عن مرارة الاغتراب في مجتمع يظهر ناسه غير ما يسرون، في زمن اختلت فيه المقاييس،

82 ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 32.

83 ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكتاب العربي، تحقيق: سامي الدهان، ص 44

فقد كان الشاعر يرى الناس يقتربون الخطيئة ويتظاهرون بالورع والتقوى، في «وقف على عمق المسافات بين ما يقال وبي ما يفعل سرا، بين ظاهر القول وبين الممارسات السرية من جميع هذه العوامل تُكون نسيج الغربة في نفس أبي نواس ومن تلك المعاناة تعمق شعوره بالاغتراب»⁸⁴

"وقد انتشر الاغتراب الصوفي بكثرة في العصر العباسي، حيث فسدت الأخلاق وضعف الإيمان، فانتشرت الرذائل وأحس أولئك المتصوفون باغترابهم في هذا الزمان، وطلبوا العزلة اتقاء أن يصابوا بأمراض ذلك العصر، محاولين أفاظ على جوهر النفس ووجدوا هذا الأمر في قربهم من الله."⁸⁵

وأخيراً: هؤلاء المغتربون الذين عانوا في غربتهم ألوأناً كثيرة من المشاق والألم استطاعوا أن يرسموا لنا لوحات تعبر عن هذه المعاناة.

الاغتراب في الشعر الأندلسي

ويعدُّ الأدب الأندلسي – شعره ونثره – واحداً من تلك الميادين البارزة في استنطاق التراث الأندلسي عامة، ومعرفة أحداثه المتعاقبة على مر السنين؛ وقد كان شعر الحنين والاغتراب في عصري المرابطين والموحدين من أبرز المواضيع التي تناولها الشعراء في تلك الحقبة الزمنية.

والاغتراب عبارة عن تجربة إنسانية ومعاناة حقيقية لها أسبابها ودوافعها، ولها آثارها ونتائجها، تلك النتائج التي كان للمجتمع ونظمه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية المعقدة أكبر الأثر في ظهورها.

فقد برز نوعين من الاغتراب: الاغتراب المكاني والاغتراب النفسي، وتجلت الغربة المكانية في البعد عن الوطن والأهل، وفراق الأحبة، وتجلت الغربة النفسية في عدم استطاعة الشاعر موأمة نفسه مع الحياة التي يعيشها في وطنه وبين عشيرته، وفساد الناس عامة والأصدقاء خاصة، أو في جور الدهر عليه، واتساع الهوة بين أحلام الشاعر وواقع.

الاغتراب في العصر الحديث

إن الاغتراب قد تجلي عن المثقف العربي المعاصر بصورة حادة للعديد من الأسباب أوأضحها: التمزق بين جدلية الماضي الحاضر، والتقليد والحداثة، والنص والاجتهاد، والأنا الآخر الذي يغزوه في عقر داره ويزدهي بحضارة ضخمة لم نشارك في صنعها مما يخل بمعادلة الأنا والآخر ويحول الحوار إلى صراع، وما لبثت أن تحالفت خيوط عديدة زادت نسيج شبكة الاغتراب تعقيدا عند العربي مثل القهر الذي تفاقمت وتعددت أنواعه كالقهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني.⁸⁶

84، " أبو نواس بين العبث والاغتراب" أحلام الزعيم، دار العودة، بيروت، 1981، ص: 20

85 "الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري"، سميرة سلامي، ص: 50.

86 مجلة الموقف الادبي: عدد 352».

إنَّ كثرة الحسِّ الاغترابي عند الشعراء أصبح متزايداً مع تعقد الحياة بأغلب مجالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي العصر الحديث تزامن شعر الاغتراب مع ما منيت به البلاد العربية من استعمار، كان سبباً في اغتراب عددٍ من الشعراء، ونفي آخرين إلى أماكن نائية.⁸⁷

مع تراجع الخطِّ الحضاري للأمة الإسلامية، وافتقاد المسلمين مكانتهم أمّةً شهيدة على الناس بين أمم العالم المعاصر، وبروز طائفةٍ من أبناء الأمة حاولت جاهدةً أن تُعيد الأمة إلى الحياة الحقيقية بعد فترةٍ من الجمود، وإلى العزّة الإيمانية بعد الدّلة والهوان، وإلى التّمكين بعد الاستضعاف، مع ذلك كلّه واجهت هذه الطائفة المؤمنة ظروفًا تشابهت مع ظروف الدّعوة الإسلامية في عهد الأوّل، فعاشوا غرباء في أوطانهم التي تراجعت الحياة فيها عن الصّورة المثلى التي تعيش في قلوبهم وصدورهم ونفوسهم، ويروّنها ماثلةً في كتاب الله تعالى، ومجتمع المسلمين الأوّل.⁸⁸

الحضارة الإسلاميّة التي حفظتْ بطنونُ الكتب كثيرًا عنها، ومنها ما لا يزال ماثلاً للعيان في صمتٍ جريح وأسّى لاذع، يشهد أنّ أمة عظيمة كانت ملء سمع العالم وبصره، ولكنّها تحيا الآن حالةً من التخلف والجمود، والبُعد عن الأخذ بالمنهج الإسلاميّ كاملاً.

وتعد سيلانيات البارودي، وهي القصائد التي حبرها في سيلان في أثناء نفيه إليها مع مجموعة من صحبه بعد فشل الثورة العراقية في عام 1882م، وقد قضى البارودي في منفاه سبعة عشر عاماً تزيد قليلاً، وكانت السلطات الإنجليزية هي التي اختارت له هذا المكان ليعيش فيه بقية عمره.

وأضى في كولومبو العاصمة سبع سنوات، ثم انتقل إلى كُندي حيث مكث فيها عشر سنوات، تعلم خلالها اللغة الإنجليزية، ودرس العربية والثقافة الإسلامية.

ويحتوي ديوانه على قدر كبير من القصائد التي قالها في المنفى، وأودع فيها شكواه من ألم الغربة، والبعد عن الوطن، وما آل إليه مصيره، ولكن القارئ لا يحس في هذه الشكوى ضعفاً ولا تخاذلاً ولا استسلاماً، وإنما يحس بتلك النفس القوية الصابرة التي طالما خاضت المعارك في أكثر من جبهة. وأبلى في معظمها البلاء الحسن.

وبعد البارودي تلقانا أندلسيات شوقي كمثالٍ على شعر الاغتراب، وهي القصائد التي قالها في منفاه الأندلس يحن إلى مصر، ويعلن شوقه إليها، وأشهرها السينية التي عارض بها سينية البحري في وصف إيوان كسرى، ومطلع القصيدة:⁸⁹

اخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي انْكَرًا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

87 مجلة فلسطين المسلمة (شهرية) ، 9 / 2003، صفحة أوراق ثقافية.

88 مقالة بعنوان: الغربة والاعتراب في الشعر العربي قديماً وحديثاً، طاهر العتباتي، شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة: 2012/4/5 ميلادي.

89 الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، المجلد الأول. ص: 46

وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ صُورَتْ مِنْ نَصَوْرَاتٍ وَمَسَّ
عَصَفَتْ كَالصَّبَا اللُّعُوبِ وَمَرَّتْ سِنَةً حُلُوءَةً وَلَذَّةَ حُلْسٍ

لقد كانت غربة البارودي ونفيه، وكذلك شوقي ونفيه إلى الأندلس - سببًا لكثير من قصائدهما حول الغربة والاعتراب؛ مما يعدُّ بُدُورًا للحديث حول الغربة والاعتراب في الشعر العربي والإسلامي الحديث. يقول البارودي:⁹⁰

كَفَى بِمَقَامِي فِي سَرَنْدِيبٍ عُرْبَةً نَزَعْتُ بِهَا عَنِّي ثِيَابَ الْعَلَائِقِ
وَمَنْ رَامَ نَيْلَ الْعِزِّ فَلْيَصْطَبِرْ عَلَى لِقَاءِ الْمَنَايَا وَاقْتِحَامِ الْمَضَائِقِ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَتَلْمَنَنَّ حَدْيِي بِالْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ

وإذا انعطفنا نحو الشاعر العربي المعاصر، نجد أن انعكاس الاعتراب عليه بات طردديًا بقدر عالٍ من الحساسية والتوتر ولهذا فقد عاش الشاعر العربي في اغتراب مُركب لأنه إنسان جمعي يستطيع أن ينقل ويشكل اللاشعور الحياة الروحية للنوع البشري.

الاعتراب في الشعر المهجري

ومن الصنف الأول شعراء المهجر الأمريكي الشمالي والجنوبي، خرجوا من بلادهم مع قوافل النازحين للبحث عن حرية الحياة والعيش التي كبلها المستعمر، وتحولوا في مهاجرهم إلى بلابل مغردة تشدوا بروائع الأشعار المعبرة، وكان للحنين إلى الوطن وذكرياته نصيب ملحوظ في أشعارهم.

ولا شك في أن اغتراب طليعة الشعراء في هذا القرن، وفي الحقب اللاحقة، قادهم إلى محاكاة الرومانسية الغربية، يستوي في ذلك شعراء الوطن العربي والشعراء العرب في المهجر، فاتخذوا من الليل أنيسًا، وتاقوا إلى حياة الكوخ، واعتزلوا المدنية، وتغنوا بالألم.⁹¹

ويقتررب الأدب العربي من استعادة شعر المهجر، الشعر الذي أضاف إلى الأدب العربي ألوانا جديدة، عرف فيها العربي معنى الاغتراب والحنين والبحث عن الهوية المفارقة، وشعراء المهجر أعادوا سيرة الحنين بتموضع مختلف، تختفي فيه سيرة الفتح والدين الغالب، وتنمو فيه سردية موازية، الفتح هنا لا يتعدى فتح باب الرزق في بلاد غريبة، ليس الفتى العربي فيها إلا "غريب الوجه واليد واللسان"، ولكن تلك المعاناة غذت عود الأدب العربي المعاصر، واستقام به، واستوى على ساق حدثته،

90 "البارودي شاعر العصر الحديث": د. شوقي ضيف، ص 83 - 84.

91 ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، ص 57

وكان يمكن لهذه الموجة الصغيرة أن تمضي وأسعًا في اليم لولا إمعاء الأبناء في الهويات الجديدة، ولم يعد الجيل الأول إلا مجرد ذكرى عزيزة، مقطوعة عما بعدها.

ولكن الظروف الموضوعية التي جعلت من الوطن العربي بلادًا طاردة لعقولها ومبديها وكثير من كفاءاتها، بعد الاستقلال الذي أعقبته حكومات وطنية، جاءت في ظروف مرتبكة، وأمام إرث ثقيل، واحتلال فلسطين؛ جعلها أسيرة ارتجالات متنافرة المسعى، وضيق الأفق من جانب آخر، وهذا ما أودى بالمبدعين بالهرب إلى فضاءات أكثر أمانًا ودفنًا وأمانًا، وتأتي قضية فلسطين فينزع أبنائه إلى جهات الأرض الأربع، وكانت كتيبة المهجرين الأولى من اللبنانيين والسوريين، وفي الأمريكيتين برزت أسماء جبران خليل جبران، إيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة، وشفيق معلوف، وإلياس فرحات، ونسيب عريضة، وغيرهم.⁹²

هاجر الفلسطينيون إلى البلاد العربية، ولا نعتز إلا على أسماء قليلة متناثرة في المهاجر الغربية كإدوارد سعيد في الولايات المتحدة، والشاعر حسين راشد، والروائي حليم بركات في المكان ذاته، ورغم أن أصواتا هنا وهناك إلا أنها لم تشكل ظاهرة كجماعات المهجر التي كثرت في البرازيل والأرجنتين والولايات المتحدة.

وتأتي الهجرة العراقية الممتدة منذ عام 1990 وحتى الآن وشملت قطاعات واسعة من المبدعين العراقيين في مختلف ضروب الكتابة، هاجروا إلى البلاد العربية كسورية والأردن والخليج واليمن وتونس، وإلى الولايات المتحدة وأوروبا وأستراليا، ومن الصعوبة بمكان حصر أسماء المهاجرين، إلا أنه من الواجب القول إنهم شكلوا ظاهرة في كثير من البلدان التي استوطنوها، وكان نشاطهم ملحوظًا، فأسسوا المنتديات والجماعات الأدبية، رغم أن منهم من عاد في السنوات الماضية إلى بلده.

وتبقى الهجرة السورية (ولعلها الأخيرة) ففي النزوح السوري الأكبر بعد تحول البلاد إلى ساحة حرب، هاجر قسم كبير إلى تركيا ومصر وبلاد الخليج والأردن وأوروبا وأمريكا، وبدأت تظهر سمات الأدب المهجري في النصوص الجديدة.

غير أن المهجرين الأوائل سيظلون الأكثر تأثيرًا، لأكثر من سبب، منها أن قرار الهجرة الأول كان بهدف العودة ومن هنا فقد كان حنينهم قاسيًا، عكس المهاجرين الجدد، الذين لم يقطعوا صلّتهم بالبلاد ويتوقعون الوصول إليها بأسرع مما يفترضه واقع الأحداث، ثم إن وسائل الاتصال الحديثة أفسدت كل ما يأخذ بالحنين والشوق إلى منارة الشعر.

ولقد أصبح الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية مسرحًا للتغيرات والتطورات على مختلف الأصعدة والميادين، وقد ظهرت في الساحة الأدبية العربية تيارات شعرية مستحدثة تدعو للتجديد والتعبير بصدق عن ما يعانيه إنسان العصر الحديث من صراعات وتأثيرها على نفسيته، وقد بدأت هذه الموجة في العراق الذي كان يعيش مرحلة مضطربة وقلقة؛

⁹² أدب المهجر، عيسى الناعوري، الأردن، 2011م، ص: 27

حيث تكاثفت الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما نتج عنها من اتجاهات سياسية يمينية أو يسارية؛ لتخلق غربة قاسية كابدها الشعراء، من بينهم: بدر شاكر السياب، فانعكست في قصائده مشاعر الثورة والرفض والإحساس بالقلق والضيق، وقد عانى الشاعر من أنماط مختلفة من الغربة (المكانية والزمانية والاجتماعية والسياسية)⁹³

يقول السياب في قصيدته "بين الروح والجسد"⁹⁴

أوحى إليه الشعر من آياته	سحرا تحل به النفوس وتعقد
باتت تخلق في الأعالي روحه	نشوى وبات خياله يتصعد
واهي الكيان كأن خطبا هدءه	ذاوي الشفاه ل طول ما يتنهد
وهو المعطل من قوام فارح	يسببي العيون ووجنة تتورد
لم يعط من مال سوى أحلامه	وكفى بها من ثروة لا تنفد

فغياب القيم الروحية، وسيطرة قيم المدينة ذات المنفعة التبادلية، عمق لدى الشاعر الإحساس بالإحباط، وزرع في نفسه بذور الشك والقلق، فبرزت فكرة العبث الوجودي وعبر الشعراء عن اغترابهم الوجودي، بقضايا مختلفة، فأصبح الحب باعثا من بواعث القلق والاعتراب، بعد أن فقد نفاه وطهارته، وحاد عن معناه الحقيقي، لكونه ينطلق من واقع محكوم بعلاقات ثقافية خاطئة وغير مستقرة، وهو ما عمق من غربة الشاعر وفقدانه لذاته وإنسانيته.

ونستخلص مما سبق أن الاغتراب عموماً يمثل حالة نفسية شعورية يمر بها الفرد حين يكون هناك خلل في توافق الذات مع العالم الداخلي أو الخارجي، وذلك لأسباب متعددة قد تكون خارجية متعلقة بالمجتمع أو الطبيعة أو المحيط الخارجي ككل، أو داخلية تتعلق بنفسية الفرد وعوالمه الداخلية، وهذا بدوره أفرز للاغتراب مظاهر وأشكالاً تعددت أسبابها وتنوعت باختلاف المجتمعات والعصور.

وقد صرح نقاد عديدون بأن تربة الاغتراب عند الشاعر العربي ليست تربة حقيقية معاشه، فهي لا تعدو أن تكون تقليدا للشعراء الغربيين؛ حيث ان الشاعر العربي في العصر الحديث كان على صلة وثيقة بالشعر الاوروبي، وكان يحاول محاكاته شكلاً ومضموناً، ويجب أن نضع في الحسبان. ولكني أرى بأن الشاعر العربي من استفاد من هذه البيئة واستطاع أن يعبر عن هذا المعنى؛ و"هذا العصر إنما هو العصر الحديث بكل ما أتى به من تجديد وابتكار في التكنولوجيا، وفي علم النفس والاقتصاد والاجتماع، وهو بالنسبة للشعراء العرب يعد عصر صراع سياسي وتغيير في القيم والايديولوجيات،

93 الاغتراب في الشعر العراقي محمد جعفر راضي، ص 6

94 الديوان، دار العودة، بيروت، 1984، ص 337

وقد أدى هذا كله مع ما أحرزه الشاعر العربي من ثقافة واسعة رحيبة الافاق، إلى أن أصبح أرهف إحساسا، وأشد وعيا بالأحداث التي تدور حوله، وغدت رؤيته لمشكلات حياته المادية والروحية أكثر عمقا وحدة، في شعوره وقدر الانسان في هذه الحياة، كما تراءت نظراته للمجتمع والكون بعامة شعره ذو بعد ورؤية إنسانية شاملة⁹⁵

وقد يكون الاغتراب هو دافعٌ إلى نبوغ بعض الشعراء فعبروا عما يجول في أنفسهم بكل صدق ومنهم من يرى الاغتراب يقف حاجزاً قوياً ومانعاً للإبداع.

ومما سبق نقول إن ظاهرة الاغتراب ازدادت حدتها وكثر التعبير عنها في القصائد الحديثة واتخذ هذا التعبير وجوها مختلفة تحيل إلى عمق تأثر الشعراء واغترابهن، ويتضح ذلك من خلال مشاعر الحزن، والألم، والتشاؤم، واليأس، والرفض، والانتماء.

ونماذج من شعرهن وعبرت الشاعرة فدوى طوقان: ⁹⁶

حياتي، حياتي أسى كلها....

وهذا شبابي

أمان كوابي

شباب سقاء الأسي ورواه

إذا ما دعتة إليه الحياه

وأشواقها، شده ألف غل

وطوقه ألف طوق مذل

شباب عذاب

رهن اغتراب

فهي تعيش حالة من القهر النفسي والاغتراب، وهذه الحالة مفروضة عليها، حيث شعرت أن مجتمعا بعاداته وتقاليده يحاول أن يجعل منها مجرد امرأة تعيش في القمم الحريمي بذل وإهانة كما تعيش غيرها من النساء، وهي ترفض هذا الواقع، ولكنها لا تملك الاحتجاج الغاضب، ولا تستطيع التمرد عليه والخروج عن المألوف، فالخوف يتملكها "منذ الطفولة والخوف".

95 س. مورية "الشعر العربي الحديث"، ترجمة شفيق السيد وسعد مصلوح، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص: 319.

96 الأعمال الشعرية الكاملة، ص 38-41

وتجد هذا الشعور في معظم قصائدها الذاتية، فلا معنى لحياتها، ولا أمل يضيء لها الدرب. وتؤكد في قصيدتها "تاريخ كلمة" أن تجربتها مع الحياة تجربة إنسان هذا العصر الذي فقد الأمل والسعادة والحب الصادق: 97

إنسان هذا العصر قاحل فقير
تأكلت جذوره، تسطحت أبعاده
سدى نريد الحب أن ينمو ولا...

وظل هاجس الموت يقلق فدوى، ويقض مضاجعها في مراحل حياتها المختلفة.
وتطالعنا الشاعرة "نازك ملائكة" فتعبر عن اغترابها النفسي وتقول: 98

خيبت هذه القرى حلو أحلامي
فلا رسم للسعادة فيها
ليس يدري الراعي المعذب مأواها
ولا كان مرة من بنيتها
خدعتني الأوهام ليس لدى الراعي
رخاء الحياة ليس لديه
فهو ذاك الكدود تصهره الشمس
ويقسو الحصى على قدميه

على الرغم من أن فكرة الاغتراب في الشعر العربي ارتبطت أكثر بمصر والشام والعراق ربما نتيجة الحروب والهجرات إلا أن الشاعرة والناقدة العمانية د. سعيدة خاطر الفارسي اختارت الاغتراب في شعر المرأة الخليجية موضوعاً لأطروحة الدكتوراه التي نالتها في كلية دار العلوم جامعة القاهرة. لتمهد الدرب أمام الباحثين والناقد لدراسة ظاهرة شديدة الخصوصية لم يتوقف أمامها أحد على هذا النحو من قبل. ومن نماذج التمرد والرفض والاغتراب عبرت الشاعرة سعاد الصباح قولها في قصيدتها "أحزان سائحة"؛ منتقدة الناس وتصرفات أهل الكويت التي ترفضها بشدة وتطالب زوجها بالعودة السريعة والهروب إلى القاهرة من ذلك الجحيم الذي يسمونه بلادها، فهي في القاهرة تعود إلى الوطن، وفي الكويت تغترب "إنها مفارقة كبيرة تجسدها الشاعرة: 99

"سانحة أنا...أجوب في الورى كلّ فضاء

97 المرجع السابق، ص ٤٥٠.

98 ديوان، نازك الملائكة، ج1، ص107

99 ديوان أمنية: سعاد الصباح، دار سعاد الصباح، 1992، ص: 65

ولي فؤاد نازف، بعدك شلال دماء
والعنكبوت ناسج في داخلي بيت شقاء
فلا أرى لي سلوة في غربتي سوى البكاء
وما رثت لأدمعي الغزار أدمع السماء
في بلد كأنه جهنم بلا هواء
الشاعرة حمدة خميس تعبر عن اغترابها السياسي ورفضها للواقع السياسي التي تمر به
بلادها¹⁰⁰:

هم في انتظارك

تألين كالعرس

أو كالولادة

هم في انتظار البيادر تأتي مواسمها

فلا تفتحي شرفات البكاء

أرتديتك في الشوق

ارتديت اغترابي

ومن الاغتراب السياسي في الشعر الخليجي النسوي الشاعرة زكية مال الله وعبرت عن الاغتراب
من ديوانها "من أسفار الذات" في قصيدتها "بعث جديد" تقول: ¹⁰¹

وحياً تتبعث بهذا الليل

لتباركك سماوات الرب

تيمم شطري

تنفخ في بوقي

تُقرؤني آيات الوصل

وتراتيل الوجد

100 ديوان "اعتذار للطفولة"، حمدة خميس، دار الغد، البحرين، سنة 1978، ص: 8
101 ديوان من "أسفار الذات" زكية مال الله، بيروت، ط 1، سنة 1991م.

الخاتمة

وفي الختام هذا جهد مقلّ أقدمه للجنة المناقشة، وأرجو أن يحظى بعناية التبنّي الأكاديمي اللطيف، الذي يشدّب برفق الناصح الأمين، فتأتي ثمار التجويد طيّعة سلسة بإذن الله تعالى.

النتائج

فتتلخص في التالي:

1. التأكيد على تأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية على التجربة الاغترابية
2. التأكيد على اختلاف الاستجابة الفنية من شاعرة إلى أخرى، وانعكاس مظاهر الاغتراب فنياً بما يناسب موهبة كل شاعر وخصائص فنه الشعري.
3. التأكيد على أن الاغتراب ظاهرة إنسانية متشابكة، تتداخل فيها جميع الظروف المحيطة بالفرد سواء النفسية؛ التي تعود في الأساس إلى الكيفية التي نشأ بها الفرد أو الثقافية والحضارية والمتمثلة في جلة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.
4. التأكيد على أن الاغتراب قد ينشأ في أحد جوانبه نتيجة لمعاناة الإنسان مشكلات عصره وأزماته ووعيه واكتشافه التناقضات التي تسود المجتمع.
5. التأكيد على إن الاغتراب يمثل حالة نفسية شعورية يمر بها الفرد حين يكون هناك خلل في توافق الذات مع العالم الداخلي أو الخارجي، وذلك لأسباب متعددة قد تكون خارجية متعلقة بالمجتمع أو الطبيعة أو المحيط الخارجي ككل، أو داخلية تتعلق بنفسية الفرد وعوالمه الداخلية، وهذا بدوره أفرز للاغتراب مظاهر وأشكالاً تعددت أسبابها وتنوعت باختلاف المجتمعات والعصور.
6. التأكيد على أن أكثر أنواع الاغتراب هو الاجتماعي والنفسي
7. التأكيد على أن مفهوم الاغتراب النفسي يتجسد بمظاهر العزلة الناتجة عن إحساس الفرد بأن الآخرين لا يواكبونه فكرياً.
8. التأكيد على أن معجم الاغتراب معجم سوداويّ، تشيع فيه ألفاظ اليأس والانهازم والخوف والحزن.
9. التأكيد بأن للطبيعة أثراً واضحاً على ألفاظ الاغتراب.

المصادر والمراجع

1. القران الكريم.
2. الحديث.
3. الفيومي، محمد إبراهيم. (1988). "ابن باجة وفلسفة الاغتراب"، دار الجيل، ط1، بيروت.
4. الزعبي أحلام. (1981). "أبو النواس بين العبث والاعتراب"، دار العودة، بيروت.
5. قميحة، مفيد. (1981/1401). "الاتجاه الإنساني في الشعر العربي الحديث"، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 1.
6. الهويميل، حسن. (1404هـ). "اتجاهات الشعر المعاصر في نجد"، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ط: 1.
7. الدكتور المنجد، صلاح الدين تحقيق. (1972م). "أدب الغرباء الاصفهاني"، دار الكتاب الجديد، بيروت.
8. سويف، مصطفى. (1981)، الأسس الفنية للإبداع الفني، دار المعارف، ط 4.
9. النوري، قيس. (1979). "الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا"، عالم الفكر، ع.1، مج.10.
10. د خالد محمد عسل، وفاطمة محمود مجاهد. "الاغتراب النفسي بين المفهوم والإرشاد النفسي"، الكلينيكي.
11. العبد الله، يحيى. (2005). "الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
12. رجب، محمود. (1393). "الاغتراب سيرة ومصطلح"، دار الأسرة.
13. حماد، حسن (1995). "الاغتراب عند ايريك فروم"، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
14. د. بركات، حلیم. الاغتراب في الثقافة العربية.
15. رنجية، بسام خليل، مراجعة خليل أحمد، "الاغتراب في الرواية الفلسطينية"، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
16. د. السويدي، فاطمة حميد. (1997). "الاغتراب في الشعر الأموي"، ط: 1، مكتبة مدبولي.
17. المجلات

18. الدوريات الأدبية المتخصصة؛ من مثل: مجلة فصول، مجلة قوافل، مجلة التّوباد، مجلة كلمات، مجلة النص الجديد، مجلة الاغتراب الأدبي.
19. اصطيف، عبد النبي. (1993). "التناص دراسة"، مجلة راية مؤته، عدد 2، كانون الأول، جامعة مؤته
20. أبو زيد، أحمد. (1979) "الاغتراب"، مجلة عالم الفكر، مج 10.
21. طاهر، عبد الله محمد. "تنايا الأنا والآخر بين الصعاليك والمجتمع الجاهلي"، مجلة فصلية محكمة تصدر من اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد المزدوج 120-121.
22. الربيعي، محمود. يوليو. "لغة الشعر المعاصر". مجلة فصول. ع 4.
23. السيد، غسان. (2003). "الاغتراب في أدب زكريا تامر"، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا. العدد 352.

جميع الحقوق محفوظة © 2021، الباحثة/ فائزة بنت أحمد بن محمد الحارثي، المجلة الأكاديمية

للأبحاث والنشر العلمي. (CC BY NC)